آدم ولقمة

في نظر كل من ابي العلاء ودانتي

بقلم الياس سعد خلي

« المطابقة تامة » في ما بين دانتي والمعري في كل ما تطرقا اليه من مواضيع في مؤلفيهما الشهيرين « رسالة الغفران » و « الكوميديا الالهية » كما قيل . وما أكثر الذين شحذوا أقلامهم في مباراة سهلة شيقة تروق الجمهور قرائنا لاثبات تهمة اقتباس اكبر شعراء الطليان دانتي من شاعرنا ابي العلاء المعري لما لذلك من تأثير سحري لذيذ وعميق في النفوس : مثير للاعجاب الشديد وداع الى الاعتزاز الكبير : وما كان ذلك منهم جميعاً من قبيل وقع الحافر على الحافر بل مجرد ترديد واقتباس حرفي لوجهة نظر اسين بلاسيوس المستشرق الاسباني وآرائه في الموضوع متناسين قول شاعرنا العربي :

لا تنـــه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

وأكثر اولئك الأدباء كتبوا ما كتبوا غير متجردين عن الهوى ولا موضوعيين بل مسوقين بدافع « التعصب » او الرغبة في ارضاء غرورهم القومي ولذا لم تتسم ابحاثهم بالميسم العلمي[1] النزيه فشطحوا كثيراً واخطأوا كثيرين ولذا ايضاً ضربت الأديبة الكبيرة « بنت الشواطئ » العربية » عائشة عبد الرحمن بآرائهم عرض الحائط وأمسكت بتلابيب رئيس الجوقة بلاسيوس منتقدة مزاعمه مبينة اخطاءه وسوء فهمه لنص الغفران وسوء قصده ايضاً ...

حبذا ان يكون الأمر كما ذكروا وقد سرنا في وقت مضى ومنذ سنين عديدة ما طالعنا من اتهام دانتي « بسرقة المعري »[2] وقد جرنا الفضول الى

(١) بنت الشاطئ — « الغفران » (مطبعة دار المعارف بمصر : ١٩٥٤) ص ٣٢٦

(٢) قسطاكي حمصي — « سبل الوراد في علم الانتقاد » ج ٣ (مطبعة العصر الجديد بحلب) ص ١٩١ و ٢١٣ .

تبيّن صحة الاتهام فاصبنا بخيبة أمل كبيرة ومريرة وراعنا ليس فقط الفارق العظيم في ما بين مواضيع كلا الشاعرين وطريقة بحثها بل الافتراء والتحامل على هذا الشاعر الفذ بين شعراء العالم ؛ والتحمس . تحمساً في غير محله . حطاً لقدر ثابغة ايطاليا دانتي الى حد اتهامه « بالتصرع والهذيان »[1] . وهالتنا الرغبة لدى ذلك الفريق من الادباء في التغرير بمثقفينا لتقبل وجهات نظر خاطئة ابتغاء تخديرهم واقناعهم باننا بلغنا « حدرة المنتهى » حتى في ميدان الأدب والشعر واقعادهم بالتالي عن التطلع الى مجاراة شعراء العالم في ما وضعوا من مؤلفات وملاحم .

لقد وقعت على قول لسينيك : « إن استئصال خطأ من رأس مواطن خير من استئصال ورم في جسده » . وقول فيلسوف سئل : « فيم يكون السرور ؟ » فأجاب : « في ايضاح حق قد التبس بباطل وازالة باطل قد جار على الحق » مما اذكى في نفسي الرغبة في درس هذه النواحي الغامضة بالرجوع الى افضل المصادر ابتداء برسالة الغفران والكوميديا الالهية وانتهاء بأهم دراسات انصار مؤيدي التيم والنافين فما في بحث تكرمت مجلة المسرة بنشره عام ١٩٤٦ ثم في كتاب ما زال مخطوطاً[2] أتمنى له الصدور ولأبناء أمتي الانتفاع به .

فالنواحي المتشابهة في ما بين رسالة الغفران والكوميديا الالهية كثيرة ومتطابقة تامة حتى في التفاصيل كما يقين بلاسيوس والذين اغترفوا من بحر علمه . وكيف لا تكون المطابقة تامة ، ما دام الحديث الذي اجراه على لسان آدم كل من المعري ودانتي مثلاً واحداً . فكلاهما رأى أبا البشر في الجنة وحادثه وسأله عن اللغة التي كان يتكلمها يوم خلقه الله[3] .

- ما من احد يظن ان دانتي بحاجة الى المعري ليعرف ان الله خلق آدم ووضعه في الفردوس الارضي . فالتوراة تكفيه كما كفت غيره من قبل ومن بعد . واما المعري فانه يعرف على الأقل من القرآن . وقد قرأه بروايات ، ومما تناقله رواة الاخبار[4] ان آدم ابو البشر وانه اول نبي وانه في الجنة التي

(١) ق. حمصي - «منهل» - ج ٣ ص ٢٠٤ و ٢٣١ و ٢٣٢ .
(٢) « دانتي بين المعري وفرجيل » .
(٣) عمر فروخ - « حكيم المعرة » (مطبعة الكشاف : بيروت عام ١٩٤٤) ص ١٠٠ - لويس جيه - « دانتي » (اميريك اديت - ريو دوجانيرو البرازيل) فلاماريون ص ٩٥ .
(٤) عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأثري - « ابو العلاء وما اليه » (المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٤ هـ) ، ص ٢٨٨ .

« خرج منها بذنب حقير »[1] : بعد ان عصى ربه فغوى (سورة طه / ٢٠) .

ابوكم آدم سنّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنان[2]

فلا عجب اذا صادفناه هناك في رحلتها بل لا بد لكل منهما من الالتقاء به لاسباغ صفة المعقول على تلك الرحلة الخيالية .

هذا مع العلم بان المعري يميل الى الاعتقاد بان آدم ليس واحداً بمذهب العقل :

وما آدم في مذهب العقل واحداً ولكنه عند القياس اوادم
(الزوميات مطبعة التوفيق ، مصر ، ١٩٢٤ ، ج ٢ ص ٢٧٢)

وأوادم الزمن الطويل كثيرة[3] .

ويجائز ان يكون آدم هذا قبله آدم اثر آدم
(لزوميات ، ج ٢ ، ص ٢٣٦)

وما حدثني لآدم او بنيه وأشهد ان كلهم خسيس
(لـ ج ٢ ، ص ٢٦)

هذا بالنسبة الى رأي المعري في شخصية آدم ، ونحن اذا امعنا النظر في ما قاله كل من ابي العلاء وداتي بلسان آدم عن حقيقة حديث كل منهما معه ، موضوع بحثنا هذا ، نجد اولا ان ابا العلاء ما أراد في الحقيقة والواقع ان يعرف من آدم اللغة التي كان يتكلمها يوم خلقه الله فهو أحرص من ان يزج بنفسه في الجدل المحتدم : حول اصل اللغة العربية ومنشأها : بين علماء سبقوه او عاصروه كابن جني وابن فارس وابن حبيب ومن جاء بعدهم : فمنهم من يقول بان اللغة العربية بل اللغات كلها اصطلاحية من وضع الناس : ومنهم من يقول بانها توفيقية من وحي الله الذي علّم آدم ما احتاج اليه منها

---

(١) ابو العلاء المعري — « زجر النابح » — تحقيق احمد سليمي (المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٦٣) ص ٥٧ و ١١٣ و ١٠٢ .
— « رسالة الغفران » — تحقيق وشرح بنت الشاطئ ص ٢٢٥ .
— و « زجر النابح » ص ١١٣ حيث يشير ابو العلاء الى انه الف عن مصحفين والظاهر انه يعني مصحف ابي بن كعب ومصحف عبدالله بن مسعود (يرجع ايضاً الى « تاريخ القرآن » لابي عبدالله الزنجاني ص ٨٠ وما بعدها (مطبعة مؤسسة الاعلمي للمطبوعات — بيروت ١٩٦٩) .
— « زجر النابح » ص ١٠٢ .
(٢) الياس سعد غالي — « داتي بين المعري وفرجيل » ص ٧ (مخطوط) .
(٣) انعام الجندي — « دراسات في اللغة البيزنطية والعربية » (مطبعة مؤسسة الشرق الاوسط للطباعة والنشر) ص ٢٣٥ .

في زمانه . وبعد آدم علّمها الانبياء نبياً نبياً . ومنهم من يقول بجواز الامرين[١] . اما ابو العلاء فيترك لهم وجهات نظرهم المختلفة المتضاربة وتبريراتهم لتلك النظريات التي لبعضها اساس وارتكاز على الدين وما جاء في القرآن من آيات : تمسكاً من البعض بحرفية النص ، والحرف يميت والروح يحيي : « وعلّم آدم الاسماء كلها »[٢] و « علّم الانسان ما لم يعلم »[٣] و « خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم »[٤] و « ما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه »[٥] . هذا بالاضافة الى الحديث المروي عن ابي عباس وابي هريرة : « احبوا العرب لثلاث لاني عربي والقرآن عربي وكلام اهل الجنة عربي »[٦] .

---

(١) عبد الرحمن السيوطي — « المزهر في فقه اللغة » تحقيق محمد احمد جاد المولى وزميليه — دار احياء الكتب العربية : مصر ١٣٢٦ هـ ص ٤—٥ .

(٢) سورة ٢/٣١

(٣) سورة ٩٦/د

(٤) سورة ٣٠/٢٢

(٥) سورة ١٤/٤

(٦) جلال الدين السيوطي — « الجامع الصغير » ج ١ حديث ٢٢٥ ص ٣٢ (مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٢ هـ) .

فحبي الدين بن عربي يقول « لغة اهل الجنة اللغة العربي القرشي » (« الفتوحات المكية » ، بولاق ، ١٢٦٩ هـ ، ج ٤ ، ص ٢١٥) .

والجاحظ يقول في كتابه « البيان والتبيين » : « القول في انطاق الله عز وجل اسماعيل بن ابراهيم بالعربية المبينة على غير التلقين والتعريف وعلى غير التدريب والتدريج وكيف صار عربياً اعجمي الابوين .

واول من عليه ان يقر بهذا الفصل فانه لا بد من ان يكون له أب كان اول عربي من جميع بني آدم ولو لم يكن ذلك كذلك وكان لا يكون عربياً حتى يكون ابوه عربياً وكذلك جده كان ذلك موجباً لان يكون نوح عربياً وكذلك آدم .

قال بذلك ابو عبيدة : « اول من فتق لسانه بالعربية المبينة اسماعيل وهو ابن ١٤ سنة » .

وروى ليث بن أبي سليم عن بعض اشياخه عن ابن عباس : « ان الله الهم اسماعيل العربية الفصحى » . « البيان والتبيين » ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ج ٣ ، ص ٢٩٠) .

اما ابن فارس فقد قال في كتابه « الصاحبي » ما يلي : « زعم اهل العربية ان القرآن ليس فيه من كلام العرب شيء وانه كله عربي يتأولون قوله جل ثناؤه « انا جعلناه قرآناً عربياً » وقوله « بلسان عربي مبين » . قال ابو عبيدة والعراب من ذلك عندي — والله اعلم — مذهب فيه تصديق القولين جميعاً وذلك ان هذه الحروف واصولها عجمية كما قال الفقهاء الا انها سقطت الى العرب فاعربتها بالسنتها وحولتها عن الفاظ العجم الى الفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال انها عربية فهو صادق ومن قال عجمية فهو صادق .

فأبو العلاء لم يشأ ان يورط نفسه بالتحيز الى جهة من الجهات التي اشرنا اليها ، او انه كان منذ ذلك الزمن البعيد يرى في منشأ اللغة ما رآه مؤخراً الاستاذ احمد السائح[1] من ان محاولة التعرف الى اصول اللغات ، وهل هي من اصل واحد ام من اصول متعددة ، في منتهى الصعوبة وان اللغة العربية من لغات العالم التي هي من اصول غير معروفة ، وان اللغة اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم وفقاً لتعريف الجرجاني وابن جني لها ، وانها أهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها .

وقد استشهد الاستاذ السائح العالم الأزهري غير متحرج بقول جون لوتز ان اللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك الناس في كل لحظة وتراقق المجتمعات في اطوارها التاريخية المتلاحقة فيصيبها ناموس التغير الحتمي الذي يجعلها أداة صادقة للتعبير بالنقط والرمز والايحاء عن حياة المجتمعات العقلية

وقال ابن ابي شيبة في المصنف عن الضحاك وابن جرير عن ابي ميسرة عمر بن شرحبيل – نزل القرآن بكل لسان (الأب انستاس ماري الكرملي ، « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » ، المطبعة العصرية بمصر ، ١٩٣٨ ، ص ٣٥ و٣٦) .

ويرى ايضاً ابن فارس اذ الامر يتعلم الأنبياء استمر حتى انتهى الى محمد فتر قراره وانه لا يعلم لغة من بعده حدثت ... « حتى الصحابة ما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم » . ومعنى هذا القول ان لغتهم لغة العرب لن يستكنوا بعد من احداث لفظة للدلالة على مدلول جديد ما دام عهد الانبياء قد انقضى وختم . ان نظرية ابن فارس هذه كان من الممكن الدفاع عنها في زمنه واما اليوم وقد ظهر بطلانها وتحتم جدواها على كل حال فيجب على العلماء المختصين ان يأخذوا برأي « اكثر اهل النظر » على ان اصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف (السيوطي ، « المزهر » ، ص ١٠ – ابن جني) ، فالمعتزلة تقول بان اللغات بأسرها ثبت اصطلاحها (السيوطي ، « المزهر » ، ص ٢٠ – ابو الفتح بن برهان) ، فأنست بذلك المجال واسعاً «لتنسيق اسماء مخترعات» والا وبينا بل فلتقي نحن بانفسنا في جمود أدى بنا الى التأخر وسيؤدي حتماً الى الهلكة وليس أدل على خطر هذا الجمود من تحدر الشيخ ابراهيم اليازجي وصف حملة حافظ ابراهيم على هذا الجمود .

(يقول حافظ ابراهيم بلسان « اللغة العربية تنعي حظها بين اهلها » ، – « الديوان » ، مطبعة الكتب المصرية ، ١٩٣٩ ، ص ٢٥٣ :

رموني بعقر في الشباب ونيتي ... عشت فلم اجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق اسماء لمخترعات
فلا تكلوني للزمان فانني ... اخاف عليكم ان تحين وفاتي
ارى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عز اقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات فقتا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات)

(١) احمد عبد الرحيم السائح ، من علماء الأزهر – (« مجلة اللسان العربي » ، الرباط ، عدد ٦ /١٩٦٩ ، ص ١٤ وما يليها) .

وخسية ومعياراً دقيقاً لرقيها او انحطاطها في ميدان الثقافة والعلم والحضارة.

وقد رأى ان الانسان الاول والجد الاول للانسانية لم يتكلم ليعبّر عن مفاهيم وافكار ولم يتكلم لانه كان له شيء يجب ان يقال بل العكس لقد فهم وفكّر وأفهم لانه تحدث.

او ان المعري وجد ان الخوض في مثل هذا البحث «لا فائدة فيه» كما يقول ابن السبكي و«عملاً قليل الجدوى ضعيف النتائج وضرباً من الافتراض والتخيل»[1] او ان هذا الامر ليس من ذوقه فحسب. او لا يهمه على ما يبدو. ولذلك لم يسأل ابو العلاء آدم عن كنه اللغة التي كان يتكلمها يوم خلقه الله، كما توهم بعضهم: بل اراد ابو العلاء ان ينفي صحة نسبة شعر الى آدم فحسب. وهذا هو الشيء الهام في نظره وهذا هو الظاهر من النص على كل حال: كما نفى في «رسالة الغفران» ذاتها ما نسب من شعر الى النابغة الذبياني والى غيره من الشعراء والى الجن ايضاً: وقد نسبت اشعار في اللغة العربية الى آدم والى الملائكة والى الشياطين ايضاً[2] بل

وقد كان ارباب الفصاحة كلما ... رأوا حسناً عدّوه من صنعة الجن[3]

حتى المعري نفسه نسب من نظمه فيما يعتقد قصيدة رائية واخرى سينية طويلة الى الجني الشيعور ابي هدرش[4] والدكتور طه حسين لا يشك ان ابا العلاء المعري هو الذي انتحل اشعار الجن[5].

ولقد وضع الشعر على السنة الجن باسم الدين لارضاء حاجات العامة الذين يطلبون المعجز والغريب ومن هنا راح القصاصون يخترعون ما شاء لهم خيالهم ان يخترعوا[6]. وبذلك تظاهر المعري الذي يعتمد على ما جاء عن

---

(١) محمد المبارك – «فقه اللغة» – الطبعة الثانية ١٩٦٤ (دار الفكر الحديث بلبنان) ص ١٧ و ١٨٦

(٢) يراجع بهذا الخصوص ص ٢٨٣ من «رسالة الغفران» للمعري الذي له ايضاً «رسالة الشياطين» المفقودة؛ و«جمهرة اشعار العرب» لابي زيد القرشي و«كتاب شياطين الشعراء» للدكتور عبد الرزاق حميدة؛ ص ٢٤٣ و ٢٤٤ و«التوابع والزوابع» لابن شهيد الذي جعل من جن الجن وبنائم شعراء (يشرف ابو عامر وصاحبه على ناد كبير الجن وبنائم وقد وقع الخلاف بينها في شعرين خمّار وبطل من العشاق)؟ ... و«المقامة الاسبوية» لبديع الزمان الهمذاني. وقد اورد ابن النديم في قائمة المرزباني كتاباً باسم «اشعار الجن».

(٣) ابو العلاء – «سقط الزند» مطبعة المعارف بمصر؛ ج ١ ص ٣٣١

(٤) «رسالة الغفران»؛ ص ٢٨٦ و ٢٩٠

(٥) الدكتور طه حسين – «تجديد ذكرى ابي العلاء» ط ٣؛ مطبعة دار المعارف ١٩٣٧ ص ٢٣٩

(٦) الدكتور طه حسين – «الشعر الجاهلي» – مجلة «الهلال» عدد شباط ١٩٢٦ ص ١٦٩

العرب من اساطير بان لكل شاعر شيطاناً دون ان يبدي رأياً صريحاً في شياطين الشعراء كالمعتزلة وبعض الفلاسفة كالنظام وابن سينا الذين ينكرون الجن . وابو العلاء يميل الى انكارهم بالتقليل مثلاً من اهمية ما جمع المرزباني من اشعارهم بقوله « ذلك حديان لا يعتمد عليه » . بل انه يأبى الايمان بالكائنات الروحانية من ملائكة وجن :

قد عشت دهراً اطويلاً ما علمت به حساً يحس لجني ولا ملك

(« المرزبانية » - ج ٢ ص ١٦٣)

ويقصد من ذلك التعريض باخبار القدماء والتشكيك بما نسبه بعض الأدباء الى الجن — والى آدم ايضاً — من شعر[1] ورسالة الغفران مملوءة بالسخرية الموجهة من الجن والملائكة جميعاً. ومع ذلك فهو يقول ان الله قادر على خلق اجسام نورانية ليست بلحم ولا دم.

مع ان كلام اهل الجنة عربي فقد روى ابو العلاء فيما روى في غفرانه ان الخازن رضوان لم يفهم شيئاً من شعر ابن القارح وان خازناً يدعى زفر قال لابن القارح الذي انشده من الشعر ما لو جمع لكان ديواناً فلم يخفل به : أحسب هذا الذي جئتني به قرآن ابليس المارد ولا ينفق على الملائكة انما هو للجان وعلّموه ولد آدم[2] والتعريض ننشه ابليس اللعين في اقليم العرب فتعلمه نساء ورجال وللجن آلاف الاوزان ما سمع بها الانس وقد نظم احدهم الخيشعور الزجز والقصيد قبل ان يخلق الله آدم وفي قدرة الخيشعور ان يملي على ابن القارح ما لا تسعه صحف الدنيا ... ثم هل يعرف البشر من النظم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الارض ؟ ومع ذلك فالنظم فضيلة العرب[3] .

ثم ان ابا العلاء وهو الولوع باللغة والشعر يقول في القصيدة التي رثا بها اباه :

تئنّ وتصبي في انينك واجب كما وجب التعب اعتراقاً على أنّ[4]

---

(١) عمر الشباع — « عبقرية الخيال في رسالة الغفران » (مطبع دار الكشاف — بيروت ١٩٥٣ ؛ ص ٧٦ — ط. حسين ؛ « تجديد ذكرى... » ، ص ٢٨٨—٢٨٩

(٢) « رسالة الغفران » ؛ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٣) « رسالة الغفران » ؛ ص ٢٨٣—٢٨٤ و ٢٥٩

(٤) « سقط الزند » ، ص ٣٣٥

اني كنت تشتكي في مرضك ويتألم بذلك قلبي فكان اليك ينتضي نسبي كانتضاء ان الذي هو حرف التأكيد النصب في اسمه .

فأمور اللغة من عروض ونحو وصرف تبسه كثيراً حتى في موقف رثائه لوالده وهو في مقتبل العمر وفي مطلع حياته كشاعر . ولم تخل منها لزومياته وكتبه بها ، رسالة الملائكة » و « رسالة الغفران » مما يدل بوضوح على ان ابا العلاء اراد في الحقيقة والواقع بسؤال آدم عما روى عنه من شعر تكذيب المدعين ليس الا فخاطب آدم بلسان ابن القارح الذي لقيه وهو عائد الى جنة من الجحيم قائلاً : يا ابانا قد روي لنا عنك شعر منه قولك :

نحن بنو الارض وسكانها منها خلقنا واليها نعود
والسعد لا يبقى لاصحابه والنحس تمحوه ليالي السعود

فيقول آدم : هذا القيل حق وما نطقه الا بعض الحكماء ولكني لم اسمع به حتى الساعة . فيقول ابن القارح : فلعلك يا ابانا قلته ثم نسيت فقد علمت ان النسيان مشروع اليك وحبيك شهيداً على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد ، ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » . وقد زعم بعض العلماء انك انما سميت انساناً لنسيانك واحتج على ذلك بقولهم في التصغير : أنيسيان ، وفي الجمع أناسي وقد روي ان الانسان من النسيان على ابن عباس وقال الطائي :

لا تنسين تلك العهود وانما سميت انساناً لأنك ناس

وقرأ بعضهم « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » بكسر السين يريد الناسي فحذف الياء كما حذفت في قوله « سواء العاكف فيه والباد » واما البصريون فيعتقدون ان الانسان من الأنس وان قولهم في التصغير : أنيسيان شاذ ، وقولهم في الجمع : أناسيّ أصله أناسين فأبدلت الياء من النون والقول الاول احسن . وقد سبق لأبي العلاء في « زجر النابح » ان قال : اصحاب التاريخ والنقل يزعمون ان اشتقاق الانسان من النسيان ومبتدأ ذلك ان آدم نسي ما عهد اليه فسمي انساناً وهذا يوافق مذهب الكوفيين في انسان[1] .

ويجيب آدم ابن القارح بقوله : أيتم الا عقوقاً وأذية : انما كنت اتكلم وانا في الجنة بالعربية فلما هبطت الى الارض نقل لساني الى السريانية فلم انطق بغيرها الى ان هلكت فلما ردني الله الى الجنة عادت عليّ العربية .

(١) ابو العلاء — زجر النابح ، ص ١٠٠ و ١٠١

اننا نجد في هذا القول صدى لقول عبد الملك بن حبيب[1] بان لسان الاول الذي نزل به آدم من الجنة عربي الى ان بعد العهد وطال وحرّف وصار سريانياً وهو منسوب الى ارض سوري او سوريانة وهي ارض الجزيرة بها كان نوح وقومه قبل الغرق . وكان يشاكل اللسان العربي الا انه محرّف وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح الا رجلاً واحداً يقال له جرهم فكان لسانه لسان العربي الاول . فلما خرجوا من السفينة تزوج آرم بن سام بعض بناته فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوص ابي عاد وعبيل وجاثر ابي ثمود وجديس حيث عاد باسم جرهم لانه كان جدهم من الأم وبقي اللسان السرياني في ولد ارفخشد بن سام الى ان وصل الى يشجب بن قحطان من ذريته . وكان باليمن فنزل بنو اسماعيل فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي[2] .

ويعرب بن قحطان سمي كذلك لانه اول من انعدل لسانه من السريانية الى العربية وهذا معنى قول الجوهري في «الصحاح» انه اول من تكلم العربية .

وقد اخرج فيما بعد ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس ان آدم كان لغته في الجنة العربية فلما عصى سلبه الله العربية — أكان ذلك قصاصاً ؟ ... — فتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية ولعل هذا الرأي كان معروفاً في أيام ابي العلاء شائعاً الى ان جاء ابن عساكر فدوّنه .

وقد سبق للمعري نفسه ان روى في «رسالة الملائكة»[3] ان جماعة من الأدباء قصرت اعمالهم عن دخول الجنة ولحقهم عفو الله فزحزحوا عن النار فبقوا بين الدارين وجاءوا فوقفوا عند باب الجنة واخذوا يرجون من حارسها ان يكون واسطتهم الى أهل الجنة وطلبوا اليه ان يخبر بعض العلماء الذين حصلوا في الجنة ان هؤلاء الادباء يريدون مخاطبتهم فجاءهم رضوان بالخليل بن احمد فعرضوا عليه ان يعلموا العربية الوليدان المخلدين فيقول لهم الخليل : جعل الله من يسكن الجنة ممن يتكلم بكلام العرب ناطقاً بافصح اللغات كما نطق بها يعرب بن قحطان او معد بن عدنان وابناؤه لصلبه لا يدركهم الزلل ولا

(١) عبد الملك بن حبيب (٧٩٦ — ٨٥٤ م) .
(٢) السيوطي — «المزهر» ص ٣٠ و ٣١
(٣) ابو العلاء — «رسالة الملائكة» : تحقيق سليم الجندي : مطبعة الترقي ، دمشق : ١٩٤٤ ، ص ٣٣٧

الزيغ وانما افتقر الناس في الدار الغرارة الى علم اللغة والنحو لان العربية الاولى اصابها تغيير فاما الآن فقد رفع عن اهل الجنة الخطأ والوهم فاذهبوا راشدين فيذهبون وهم مخلقون .

ونعود الآن الى آدم ابي العلاء فنراه يستنكر ما نسب اليه من شعر متسائلاً في اي حين نظمت هذا الشعر : في العاجلة ام الآجلة ؟ والذي قال ذلك يجب ان يكون قائله وهو في الدار الماكرة ألا ترى قوله : منها خلقنا واليها نعود . فكيف اقول هذا المقال ولساني سرياني[1] واما الجنة قبل ان اخرج منها فلم اكن ادري بالذي فيها : وانه مما حكم على العباد صيّر كأطواق حمام بها رمى لاحد من ذمام . واما بعد رجوعي اليها فلا معنى لقولي واليها نعود لانه كذب لا محالة ونحن معاشر اهل الجنة خالدون مخلدون .

ينقل لنا ابن القارح ان بعض اهل السير يزعم ان هذا الشعر وجده يعرب في متقدم الصحف السريانية فنقله الى لسانه وهذا لا يمتنع ان يكون .

وكذلك يروون لنا قول قابيل هابيل :

تغيّرت البلاد ومن عليهـا ... فوجـه الأرض مغبّر قبيح
وأودى ربع طيبهـا فباتوا ... وغودر في الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشد :

وزال بشاشةُ الوجه المليـح

على الاقواء وفي حكاية : معناها ما اذكر ان رجلاً من بعض ولدك يعرف بابن دريد انشد هذا الشعر وكانت روايته :

وزال بشاشةُ الوجه المليـح

فقال اول ما قال : أقوى .

وكان في المجلس ابو سعيد السيرافي فقال : يجوز ان يكون قال :

وزال بشاشة الوجه المليحُ

بنصب بشاشة على التمييز وبحذف التنوين لالتقاء الساكنين كما قال :

---

(١) روى صاحب السيرة الحلبية ان آدم كان يتحدث بالعربية في الجنة ولكنه تحدث بالسريانية على الارض (دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ، ص ٢٧) . و(مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٣ ، ص ٤٨٥ ، عام ١٩٦٩ (مقال كامل عياد = من تاريخ الاستشراق) .

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

قلت انا : هذا الوجه الذي قاله ابو سعيد شر من اقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة .

فيقول آدم : أعزز عليّ بكم معشر أبنيّ انكم في الضلالة متبوكون (متحيرون مضطربون) آليت ما نطقت هذا النظم ولا نطق في عصري وانما نظمه بعض الفارغين فلا حول ولا قوة الا بالله !... كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم ابيكم — مشيراً الى الآية « انه ما من نبي الا وقد كذبت عليه امته وان امتي ستكذب عليّ ايضاً » (سورة الملائكة/٣) « ومن اظلم من افترى على الله كذباً » (سورة هود/١٨) — ثم كذبتم على حواء أمكم وكذب بعضكم على بعض[١] فكأنه القائل : اني مكذوب عليه كما كذب العرب على الغول[٢] فالكذب كثير جم[٣] والكذب سوق ليست للصدق[٤] وفي هذه الاقوال منتهى الصراحة في تأكيد كثرة الكذب . وكثيراً ما ناقش المعري الشعراء فيما قالوه وفي ما روى عنهم ولم يفت المعري ان يستحضر في الآخرة شاعراً ليسأله عن كلمة واحدة في بيت واحد[٥] حرفه الرواة الذين اعتادوا تغيير ما يقول الشعراء[٦] وقد وصف احد الشعراء اولئك الرواة والنساخ بقوله :

أخا العلم لا تعجل بعيب مصنف ولم تتيقن زلة منه تعرف
فكم افسد الراوي كلاماً بعقله وكم حرّف المنقول قوم وصحّفوا
وكم ناسخ اضحى لمعنى مغيّرا وجاء بشيء لم يرده المصنف[٧]

وقد بيّن ابو العلاء في مناقشاته باسلوب طريف لطيف وجه الصواب بحسب رأيه في كل ذلك كقوله لعدي : جئت بشيئين في شعرك وددت أنك لم تأت بهما[٨] . ويخاطب التابغة الذبياني بقوله لقد حفّ عليك اهل العلم من الرواة ... ويتمنى حضورهم ليسألهم بحضور التابغة كيف يروون قوله في داليته الشهيرة في المتجردة زوجة النعمان : واذا نظرت واذا

(١) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٥٢ وما يليها .
(٢) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٨١
(٣) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣١١ و ٣٤٥ و ٤٤٠ و ٤٤٥ و ٤٩٠
(٤) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٤٩٠
(٥) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٣٧
(٦) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ٣٢٠ و ٣٣٨ و ٣٥٠
(٧) ورقة الروزنامة الهاشمية تاريخ ٢٥ /٥/ ١٩٥٣
(٨) ابو العلاء المعري — « رسالة الغفران » ص ١٩٢

ـــتَ وإذا ظعنت وإذا ترعت أينتج الشاء ام بقسمها ؟ فيقولون بفتحها والنابغة يختار الضم . ويذكر الذبياني قصيدة برمتها نسبت اليه ربما على سبيل الغلط والتوهم . كما انكر كل من الجعدي واعشى قيس قصيدة الى غير ذلك من المسائل النحوية والصرفية العديدة التي تطرق اليها[1] .

٥

فغاية المعري اذن من «رسالة الغفران» لا تخرج عن اظهار علمه وتوجيه النقد فيما يتعلق باخبار الشعراء في الجاهلية وبعدها مبدياً اراءه في اللغـــة والنحو[2] وغايته من الحديث الذي اجراه مع آدم بخاصة انما تكذيب تاحلي آدم الشعر فحسب .

٥

أمّا دانتي فقد لقي آدم في الملأ الأعلى قرب العذراء مريم[3] فأحب ان يعرف منه منذ متى وضعه الله في الفردوس الارضي اي تاريخ خلقه اولاً وكم دام تمتع عينيه بالفردوس ثانياً والسبب الحقيقي لغضب الله عليه وطرده منه ثالثاً واللغة التي استخدمها وقام بصياغتها[4] رابعاً وهنا شيء طبيعي ومعقول لمن يصادف آدم ... ففي ما يتعلق بالسؤال عن اللغة فقد اجابه آدم بقوله :... ان اللغة التي كنت اتكلمها اندثرت قبل ان تتصرف سلالة نمرود الى العمل الضخم الذي لم يكن من المستطاع ان ينتهي[5] اي بناء برج بابل .

ولكن هذا القول لا يفيد شيئاً في معرفة حقيقة اللغة التي كان آدم يتكلمها قبل التاريخ الذي اندثرت فيه ، الا ان دانتي في كتابه البلاغة العامية (١/٦) الذي أنشه في المنفى[6] يرى ان من المعقول التفكير بان يكون آدم الذي خلقه الله في حال النعمة والصلاح اول من تكلم معرباً بالكلمة عن

---

(١) ابو العلاء المعري — «رسالة الغفران» ص ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠١ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٦٦ و ٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٥ و ٣٠٣ و ٣٠٦ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٤ و ٣١٦ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢٢ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٧ و ٣٣١ و ٣٣٢ و ٣٣٤ و ٣٤٢ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٨ و ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٥٥ و ٣٥٩ و ٣٦٠ و ...

(٢) عمر فروخ — «عبقرية الخيال في رسالة الغفران» ص ٢٠ و ٢١

(٣) دانتي «الكوميديا الالهية» ف ن ٣٢ /١٢١

(٤) حسن عثمان — «ترجمة الفردوس» دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ص ٤٥٢ و ٤٥٩ و ٤٦٠

(٥) دانتي — «الكوميديا الالهية» ف ن ٢٦ و م ن ١٢ /٣٤

(٦) لافونت بويبلي — «معجم المؤلفات» ، باريس ١٩٥٤ : ج ٤ ، ص ٥٩٧

سروره وعرفانه الجميل نحو خالقه وان تمجيده لله استمر في لغة الشعب العبري الذي بقي الشعب الوحيد بين شعوب الارض محافظاً على ايمانه بالله قبل محمد وقبل المسيح . ولكن البشر لما عصوا الله تحطّمت الوحدة الروحية لدى الاسرة البشرية الاولى وكان ذلك عندما أصبح بانو برج بابل لا يفهم بعضهم بعضاً ومنذ ذلك الحين اخذت الألسن تختلف وتتباعد في المكان والزمان[1] حتى لم تبق لغة وحيدة على الارض[2] .

وداتي يرى ان اللغة من صنع الانسان على اعتبار انها أثر عقلي وما من أثر عقلي يبقى دائماً ما دام ذوق الانسان يتغيّر أبداً ولذا فهي عرضة للتغيير والتطور . فداتي يقول بلسان آدم : اذا تكلم الانسان فذلك امر طبيعي اما ان يتكلم بشكل او بآخر فالطبيعة تترك ذلك لكم حسب رغبتكم[3] ولهذا يعتبر داتي من روّاد علم اللغة وفلسفتها[4] متشياً مع الكتاب المقدس حيث جاء : « جبل الرب من الارض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها فكل ما سماه به آدم عن نفس حية فهو اسمه[5] فآدم اذن هو الذي اطلق على الحيوانات اسماءها ولم يتعلمها او يتلقنها فهو الذي صاغ اللغة التي كان يتكلمها[6] . لكن داتي جنح في انكوميديا عن كنه لغة آدم فصمته وعدم ترديده ما ذكره في كتابه « البلاغة العامية » لدليل على انه لم يقصد في الكوميديا سوى التلميح الصريح الى ما ورد في سفر التكوين واستشهد به « قال الرب هوذا بنو آدم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة ... هلمّ نهبط ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض ... فبدّدهم الرب وكفوا عن بناء المدينة ولذلك سميت بابل لان الرب هناك بلبل لغة الارض كلها »[7] .

وقد روى ابن عساكر في تاريخه عن كيفية تبلبل ألسن البشر حديثاً عن انس بن مالك قريباً من نص التوراة هذا : قال : لما حشر الله الخلائق الى بابل بعث اليهم ريحاً فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا فنادى منادٍ من جعل الغرب عن يمينه والشرق عن يساره واقتصد البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن

(١) لانزيث بيبياني — « معجم المؤلفات » ج ٤ ، ص ٥٩٧

(٢) « سفر التكوين » الفصل ١١

(٣) حسن عثمان — « ترجمة الفردوس » ص ٤٥٢ و ٤٦٠ و ٤٥٩

(٤) « سفر التكوين » ، الفصل ٢ /١٩ و ٢٠

(٥) داتي — « انكوميديا الالهية » ف ن ٣٢ /١٢١

قحطان بن هود . أنت هو ؟ فكان اول من تكلم العربية المبينة . ولم يزل المنادي ينادي من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لساناً وانقطع النسوت وتبلبلت الالسن فسميت بابل وكان اللسان يومئذ بابلياً[1] .

ذاشارة داتي في «الكوميديا» الى ان اللغة التي كان يتكلمها آدم قد اندثرت قبل ان تبني سلالة نمرود بناءها برج بابل تزييد فقط لما ورد في الكتاب المقدس . و«الكوميديا» مكتظة بالتلميحات الى ما ورد فيه والاستشهادات به كما ان «رسالة الغفران» مشحونة بالآيات والاحاديث .

فلداتي الهام عظيم وعميق بالعهدين القديم والجديد كالمام المعري بالقرآن والاحاديث . والأدلة على ذلك كثيرة جداً ولا سيما في «زجر النابح» حيث يرد ابو العلاء : بالاستناد الى الآيات القرآنية خاصة والأحاديث . على الطاعن عليه في معتقده . وهذا نرى رغم التقاء ابن القارح وداتي بآدم ان موضوع حديث المعري مع آدم : الشبيه بموضوعات احاديثه مع اكثر وافهم من تقيم في الدار الآخرة . يختلف جداً عن موضوع حديث داتي معه وبالتالي فان برهان فروخ الذي مررنا به اولى من ان يتخذ حجة لتبرير او دعم ما ذهب اليه : فلو صح الاقتباس لكان المعري وداتي اتفقا على لغة واحدة لآدميها مثلاً او اتفقا على الغاية من حديثيهما معه . او ليس غريباً الا يتطرق داتي الى اللغة السريانية وكلام اهل الجنة . ويقال انه اطلع على «رسالة الغفران» . وتهمل التوراة التي منها استمد كل فكرته ؟...

ان ابن عساكر لم يحدد ماهية اللسان البابلي الذي تبلبل الى اثنين وسبعين لساناً وداتي لم يسمّ في «الكوميديا» . هذا المؤلف الجدّي الرفيع : اللغة التي بلبلها الله . فهو ايضاً يرى كغيره من العلماء ان البحث لمعرفة منشأ اللغة واصلها حتى عهده والى يومنا هذا : ضرب من الافتراض والتخيّل ويستند الى حد كبير الى التقدير والتخمين[2] ولذلك لم يردّد في كوميدياه رأيه الذي أعرب عنه في «البلاغة العامية» لأنه مجرد رأي او فكرة هو نفسه غير مقتنع بها ربما ولا يعلق عليها كبير اهمية بل مجرد افتراض ولكنه افتراض واقع مترن على كل حال : من المعقول ان يكون تمجيد آدم لله قد استمر بلغة الشعب الذي بقي محافظاً على ايمانه به ...

(١) عبد الرحمن السيوطي – «المزهر في علوم اللغة وانواعها» ص ٣٢

(٢) محمد مبارك – «فقه اللغة وخصائص العربية» ص ١٨٦ و ٢٤